# يوميّاتٌ عَجْلى لعاشقٍ منفيّ

أحمد عُلَبي

تصوير: عادل عيتاني

**ولد الدكتور أحمد عُلبي في بيروت عام ١٩٣٦. من كُتُبه: ثورة الزَّنْج وقائدها عليّ بن محمد (١٩٦١)، الإسلام والمنهج التاريخي (١٩٧٥)، ثورة العبيد في الإسلام (١٩٨٥). وله في الحقل الأدبي: تحت وسادتي، مقالات واعترفات وذكريات (١٩٨٦)، في حنايا الوطن الملهم، نزهات وحكايات (٢٠٠١)؛ كما صدر له كتاب يوميات مجنون ليلى (٢٠٠٣)، وهو معالجة عصرية للسيرة الغرامية الشهيرة. وله كتابان عن طه حسين: طه حسين، رجل وفكر وعصر (١٩٨٥)، طه حسين، سيرةٌ مكافح عنيد (١٩٩٠). عمل أستاذاً للأدب العربي الحديث ولمنهجية البحث في كلية الآداب بالجامعة اللبنانية. كما شارك في التأليف لدى المركز التربوي للبحوث والإنماء.**

### ١ ـ الشاهد الصامت (الأحد ٤ تموز ٢٠٠٤)

تحضُنُني الجبالُ الحانيات، لكنّ حِضْنَكِ أَحَنُّ عليّ، يا سُليمى. هذي الجبال، بسلاسلها المترامياتِ المتقاطعات، كانت جنّتي وولوعي؛ فغدت، الآن، جنّتي ومنفاي! أتأمّلها، صباحًا ومساءً، هذي الجبال التي تمتدّ شامخةً من البيدر إلى الدير، قصدتُ من «ضهر البيدر» إلى «دير القمر» ـ وهل للبيدر ضهر يستند إليه، وهل للقمر دير يأوي إليه؟

بيْد أنّ الطبيعة، على روعتها وجلالها، تتلقّاكَ، تضمّكَ بين حناياها، تُصغي لنشيجك الغائر، تشنِّف قلبَكَ وأُذُنَيْكَ بأعذب الخرير والألحان. لكنّها شاهدٌ يَسْتعصم بالصمت؛ لكأنّه صمتُ الأديرة، حيث يخيّم الهدوءُ المريك في كلّ زاوية، وحيث تنبعث من الجدران، الراشحةِ بالخشوع، عتاقةُ الزمان. الطبيعة شاهد يَزُمُّ شفتيه صامتًا، حياديًا.

### ٢ ـ فيضان النعمة (الاثنين ٥ تموز)

مشتاقٌ أنا، في منفايَ السعيد، لبُحّة صوتِكِ، لأناملك التي لا تَملُّ المداعبةَ ومعاودتَها والجريَ على باطن كفّي لمسًا ونقرًا، لكأنّها كتابةٌ مسمارية تتقنينها وتُغرمين بها. محْبورٌ أنا في حياتي، ولربّما أنا موضعُ حسدٍ وغِيرة. فلا أرتاب في أنّ كثيرين تطلّعوا، ولو لنوالِ نظرةٍ حانيةٍ من نبع ناظريْكِ؛ ولكنّهم آبوا محمَّلين بالخيبة والحسرة. فكيف لا أَسْتشعر، مغتبطًا، أنّ القَدَر، إذ منحني حبَّكِ، فقد أفاض عليّ نعمةً لا حدود لفيضانها.

وقد تقولين لي عاتبةً: أتقول: منفاك السعيد؟! لئن قلتُ غيرَ هذا لقد وقعتُ في الكَذِب والمراوغة. فالجبل، حيث أصطاف، هو جنّة أُقرُّ دائمًا بفضلها عليّ. فأَشهُرُ الصيف مرهِقة في بيروت، تستحيل معها القراءةُ والكتابة. وأنا لم أُحبب يومًا كلَّ ما هو اصطناعيّ، سواء أكان زهرةً أَمْ عاطفةً أمْ هواءً. أمّا في ربوع جبلنا، فهناك النسيمُ بلطافته، والمناظرُ الطبيعيّة بروعتها؛ وهناك هذه الفرصة المتاحة لأنْ أبثَّكِ أشواقَ عاشقٍ منفيّ!

### ٣ ـ داءٌ لا شفاء منه (الثلاثاء ٦ تموز)

أكتب إليكِ، الآن، يا سُليمى، وبائعٌ ينادي على بِضاعته. هو آتٍ وقد حَمَّلَ «قانه،» القادمَ من «البقاع،» أو من إحدى القرى المنتشرة هنا وهناك، في حنايا جبلنا المعطاء؛ حمّله بخيرات لا ألَذّ منها طعمًا ولا أَطيب فَوحًا: خوخ أحمر، يذوب في الفم؛ درّاق نَضِر، حلو المذاق؛ بندورة جبليّة، كبيرة الحجم، والتهامُها هوايتي الدائمة؛ بصل أبيض، حلو الطعم، صغير الحجم مستطيله، كأصابع البوبو...

وقد تقولين لي عاتبةً: حنانَيْكَ، يا حبيبي، وهل صارت هذه الخيرات تشغَلُكَ عنِّي، فتغرق في وصفها وكأنّها موضعُ شَغَفِكَ، ومحطُّ غرامك، وسجلُّ غزلك؟ بتُّ في حَيْرةٍ من أمري، يا سُليمى؛ فأيّ كلامٍ إيجابيّ ودود، ينعقد حول امرأةٍ ما، يرميكِ في غِيْرةٍ واضطراب. ثمّ تهدئين وتعتذرين، لأنّ الطيبة أَوطدُ عندكِ، وهي دائمًا غلّابة، برغم عاصفة الغضب والحَنَق. فهل أصبحت الفواكهُ أيضًا، يا عزيزتي؛ هل أصبح البصلُ من «بْريحْ،» والبندورةُ من «رويسة البلُّوط،» والدرّاقُ من «الفريديس،» والخوخُ من «المشرفه،» وكلُّها طيّبةٌ وشهيّة، كما أعرف وتعرفين؛ هل أصبحوا غُرماءَ لكِ ومنافسين؟! حقًّا، الغيْرة صعبة، وعلاجُها أصعب، بل قُلْ: مستحيل.

### ٤ ـ رسالة بالألمانية (الأربعاء ٧ تموز)

أكتب إليكِ وعنكِ، دائمًا، قبل الظهر؛ عندما يكون البالُ صافيًا، وأكون قد شربتُ الماء البارد، وارتشفتُ القهوة الساخنة، وقلتُ

في نفسي: ما أجمل الحياة وما أرقّها!. «ارتشفتُ،» هذا الفعل يحلو لكِ، كما أخبرتِني ضاحكةً؛ فأنتِ تكتشفين العربيةَ معي، وتقفين عند بعض أفعالها ومفرداتها طَرُوبًا جَذْلى. وعندما تهاجمين العربية، لانصرافك إلى الفرنسية، ثقافةً وتعليمًا، أُعاتبكِ، لأنّ في الأمر تنديدًا ضمنيًا بي. فأنا ابنُها لحّاً. وهذا يحتاج إلى شرح، إذ نقول: هذا ابن عمّي لحّاً، أي القريبُ اللزم. ثم إنّ النفور من العربية مردّهُ، ببساطة، الجهلُ بها. والموضوع طويل، وليس الآن مجاله. ومرحى، في المناسبة، بالأفلام المكسيكية وأمثالها؛ لأنّ الدبلجة باتت موفَّقة في لبنان؛ ثم هذه الأفلام ـ وهذا بيتُ القصيد ـ تعلّم العربيةَ الفصحى على نحوٍ مقبول وجميل.

أستمع، بانشراح، إلى سوناتة «فُورْ إليز» لبيتهوڤن. هذا الجرماني الكبير كم هو مبدع في أعماله السيمفونية الصخّابة، وكم هو مبدع أيضًا في سوناتاته الرقيقة كجداول متراكضة. وأقول في طويّتي: لعلّ سُليمى تُصغي، الآن، إلى ما أُصغي إليه. فقبل صعودي إلى الجبل أخبرتُكِ أنّي خَطَطْتُ لكِ رسالةً بالألمانية، وعندما التقيتُكِ أهديتُكِ تسجيلاً لطيفًا لسوناتة بيتهوڤن «فُورْ إليز» وكتبتُ على إتيكت، فوق غلاف النيلون الخارجي، الرسالة التالية: فُورْ سُليمى (für Sulaima)! وقلتُ لكِ إنّي أُحبّ الإيجاز، فهو عُنْوان البلاغة عندنا. وضحكنا، وقلتِ لي، ما تردّدينه دائمًا، مازحةً، على مسمعي: «محتال، مقطّع موصّل!» أنا أحتال لأبثّ البهجةَ في روحِكِ، يا حبيبتي، ولأُشاهد البسمة الجميلة تشعّ من فمكِ وعينيك. لكِ حبّي واشتياقي.

### ٥ ـ هاتفٌ يرنّ (الجمعة ٩ تموز)

لا يُمْكن، بأيّ حالٍ، أن أنسى ما أَخْبرتِني به البارحة، ونحن نُمضي اليوم في السباحة والتشمّس. لقد قلتُ أنا كلامًا كثيرًا؛ فقد فاض بي الشوق، وكان في فمي حديثٌ ومحطّاتُ قولٍ وطُرَفٌ وتعليقاتٌ وغَمَزاتٌ؛ فأنا هابطٌ بيروتَ من منفاي الجبلي، وبودّي أن أُفرغ مخزونَ لوعتي واشتياقي. لكنّ كلّ ما نطقتُ به، على مِدار الساعات الستّ التي انقضت، ولم نشعر البتّةَ بجَرَيانها؛ لا يوازي جملةً فاتنةً نطقتِ بها، يا عزيزتي، في هدوءٍ وغِبْطةٍ: «كلّ مساءٍ، في الوقتِ الذي من عادتنا أن نتهاتف فيه، اتصلُ بكَ، في بيروت، وأنا عارفةٌ تمامًا أنْ لا أحد سيجيبني! جرس الهاتف يرنّ، وأنا أُصغي إليه في هدأة الليل!!»

رائعةٌ أنتِ، يا سُليمى، لا نظير لكِ في رقّتك ورهافة عواطفك وبراءة أحاسيسك. أنتِ من النوع الذي يُعطي بكلّيته، لا يفكّر بمصلحةٍ أو عاقبةٍ أو مكسب. أنتِ روحٌ بلّورية، شفّافة، صافية. وحتى في هنيهات غضبك المكظوم أو حَرَدك الأنثوي، تتبدّين طيّبة، غيرَ عدائيةٍ، مشبّعةً بالغُنْج التصالحي وبالمودّة العميقة. أتمنّى، من صميم قلبي، أن أكون جديرًا بحبّك، بلهفتك، بمبادراتك الدالّة على المراهقة، وقد تخطّيْنا هذه السنّ منذ زمن بعيد؛ ولكنّها، ههنا، مراهقةٌ نابعةٌ من السخاء الكلّي لامرأةٍ، حبُّها سوناتةٌ حالمة، وصداقتُها وفاءٌ واندفاعٌ وشميمُ حَبَق وبهاءُ قَرْطاسية!!

### ٦ ـ زيارةٌ لبيت شوپان (السبت ١٧ تموز)

لجّ بي الشوقُ، وقرعتُ صدري؛ ليس كهؤلاء الذين يَقْرعونه حزنًا وأسفًا على الماضين، وإنّما لأنّي متبرّح ملتاع. وخلال هذا القرع بحثتُ عن قلبيَ الذي يقع بين الرئتين، ويميل نحو اليسار؛ وهو ميل قديم عندي، متأصّل في الفكر والوجْدان، ولا رجعة عنه. ولم أَعْثُرْ على قلبي حيث ينبغي أن يكون؛ فقد تركتُه في بيروت. أخذتْه سُلَيْمى واستأثرتْ به وَحَنَتْ عليه. فأنا جسد قد ضَيَّع مهجتَه، يمشي في الجبل سَبَهْلالاً بين الحقول، ينظر في الأفق كمَنْ يتذكّر أمرًا مبهمًا ولا يقع على حيثيّاته، ويُغِذُّ في السير كمَنْ يلاحق فكرةً عنّت على خاطره ويأملُ في التقاطها قبل أن تتبدّد.

من حسن الحظّ أنّ شوپان، بموسيقاه الحالمة المنسابة، التي يَنْقر عازفُها بخفّةٍ وسيولةِ أصابع البيانو؛ شوپان البولوني، المحتقن حُبّاً وهُيامًا، يخفّف وَحْشتَي الجبلية. ليتكِ كنتِ معي عندما زرتُ، ذاتَ عامٍ سالفٍ غابر، وكنتُ عهدَذاك لم أبلغ العِشْرين بعدُ؛ زرتُ بيتَه وأَجَلتُ البصرَ في البيانو الذي استخرج منه أعذبَ الألحان، وهوّمتُ أتفحّص أثاث منزله وجدرانه وسجاجيده، وكأنّي في غمرة حُلْم زاهٍ. ولكنْ أنّى لكِ أن تكوني معي في ذاك الزمان؛ وكنتِ طفلة، تدرج مزهوّةً بجمالها ولُعَبها وفساتينها؟ ودار الدولاب وانطوت العقود، ثم التقينا؛ وانقدح الخَفَقان، وماجت العواطفُ، والتهبت الأحاسيس. وكما يقول إمرسون، في أطيب القول: «مَنْ يُحبُّ لا يَهْرم.»

### ٧ ـ أأنا حزين أَمِ القمر؟ (الثلاثاء ٢٠ تموز)

أنا، في منفايَ الاختياري، أتلوّى على نار الشوق والحنين. غابت سُلَيْمى عن أفق حياتي؛ فلم تعد البيوتُ الجميلة بحجرها المقصّب، وقِرْميدها الأحمر، وقناطرها المزوّقة، تُغويني. لم تعد الأجمات الخُضْر، والفُسُحات الصُّفْر، والدروبُ المتعرّجة، تستوقف ناظري وتناديني. وهذه الجبال، قريبها والبعيد، مَهيبها والمتواضع، مكسوّها والأجرد؛ غدت مجرّدَ سلاسلَ، تسدّ المدى الشرقي، فكأنّها ستائرُ عملاقة، تخفي عني ما قد يكون وراءها من سرّ ونُضار. وبات القمر، الذي يعلوها، في الليالي الساجية، أوانَ اكتماله وزَهْوه، وجهًا شاحبًا، ممتقعًا، يطلّع من وراء هذه الجبال، ويتسلّق مرتفعًا في أعالي السماء. تُرى ماذا حلّ به، وعلامَ هذا الاصفرار في وجنتيه؟ وعهدي به، من قبلُ، مفترّ الثغر، بسّام الوجه، حلو القَسَمات. أدَهَمه حزنٌ، أم أنّ الحزن يستوطن في مُقْلتيّ ؟

وهو منفًى، كما أسلفتُ، اختياريٌّ، أَمْلَته عليّ الحاجةُ الماسّة إلى مكانٍ ينتفي فيه عَرَقٌ يتصبّب من الجبين، وينساب غزيرًا من مسامّ الجسم؛ خلال قيظٍ بيروتي مقيت، بحيث تستحيل القراءةُ والكتابة ـ وأيُّ معنًى لحياتي من دونهما؟ ولو أنّ الحال لأيام معدودات، لهان الأمرُ، ولانتفت الحاجةُ إلى هذا المنفى؛ ولكنّه فصلٌ بأكمله، إذا لم تَعْمد إلى هذا الحلّ، لتلافي عقابيله، قتلتَ أسابيعَ الصيف ضجرًا وتململاً وتسكُّعًا على أرصفة المقاهي. ومؤخّرًا التقيتُ الصديق الشاعر جودت فخرالدين، وتعانقنا بعد

طول غيابٍ عن بعضنا؛ ونهضتُ بجسمي لأصل إلى خدّيه؛ فهو من بقايا رماح قبيلة سَمْهَر! وسألني ما بالي غائبًا متواريًا؛ فأجبتُه أنّك تواظب على دوامٍ يومي في مقهًى بالحمرا، في حين أنّي لا أغشى البتّة هذه المقاهي الرجاليّة.

**٨ ـ أيُّ سرٍّ فيك؟** (السبت ٢٤ تموز)

أأقول إنّها امرأة من ذهب، سُليمى هي؟ هذه الإنسانة، المترعة عِشْقًا ولهفةً وغَيْرية، تُحيّر لُبّي، وترميني في دُوار من العجب والإعجاب. نحن، عمومًا، في عصر الأنانية وحبّ الذات والناس الساعين لتأمين أغراضهم ومصالحهم، وبعدهم فليكن الطوفان. وحكايةُ أنّي استفتحتُ، فلتذهبْ إلى دكان جاري؛ هذه من مآثر الزمن العتيق الذي لن يعود. وتعال أُزوِّجْكَ أختي أو بنتي، هذه براءة قضت عليها الحياةُ الاصطناعية الحديثة! وعندما تَعْثر، اليومَ، على امرئ صَدُوق، ذي لفتة، ينضح بالودّ، ويغمر مَنْ حوله بالرقة والدماثة؛ تخال أنّك وقعتَ على كَنْزٍ إنسانيٍّ نفيس. فكيف إذا كان هذا المرء امرأة تتحلّى بتلك الشمائل، وينضاف إليها ما تتفرّد به حواء من دفءٍ وتلقائية وحرارة؟! وسليمى عجينة من هذا الذي تقدَّم كلِّه: قد رقَّقتْها الأيامُ فجعلتها تذوب ودادًا وإخلاصًا، وحنّكتْها التجاريبُ، لكنّ الطبع الذي فُطرتْ عليه غلاّبٌ عندها ماثل، فهي تمدّ يدَ العون لكلّ طالب، فكيف إذا كان له في قلبها موضعٌ يتربّع فيه ويسلْطِن؟!

قبل البارحة، وككلّ خميسٍ، فقد أمضيناه في البحر نتقلّب بين طيّات الماء المالح، والشمسُ تلسع وجهيْنا وكتفيْنا، ونستغرق في ضَحِكٍ وكلامٍ حلوٍ ونِكات قارصة وتعليقاتٍ طيّارة. ثم أوصلتني سليمى بسيارتها إلى منطقة المتحف، عند الخامسة مساء: حيث آخذ القان الذي يقلّني إلى «عاليه،» ومن هناك آخذُ قانًا آخرَ يضعني في البلدة الجبلية التي أصرف الصيفَ هانئًا، في ربوعها. وودّعتُها وركبتُ أحدَ القانات المصطفّة، منتظرًا إقلاعَهُ. ولكنّي لمحتُ سيارتها مجددًا تحاذي صف القانات، ثم أبصرتُها ثالثةً وهي تبحث عنّي لتطمئنّ إلى أنّي أمَّنتُ مقعدًا في قانٍ يَحْملني إلى الجبل! لوّحتُ لها وقلتُ في نفسي: هذه امرأة لا مثيل لطيبتها ولعواطفها الجيّاشة. وهي تفعل كلّ ذلك باندفاعٍ طبيعي عفوي؛ كما يَدْفع النهرُ مياهه، كما تنشر الوردةُ أريجَها، كما يُتحفنا الحسّونُ، ذو الألوان الجميلة، بتغريده الرخيم. أيّ قوة محرّكة بهية تدفعكِ، يا سُلَيْمى، إلى إتيان هذه المواقف؟ أيُّ سرٍّ انطوى فيكِ واختبأ؟

**٩ ـ «من غير ليه»** (السبت ٣١ تموز)

كانت الليلة، البارحةُ، قمراءَ. فهو قمرُ أربعتعشر، رغيفٌ دسم، منقورٌ عند طرفه الأيسر. شاهدناه أبيضَ فوق السلسلة الغربية، ونحن نخرج، حوالى الثامنة مساءً، من النادي في «شانَيْه،» حيث «أيمن» يتقبّل التهاني بزواجه الجديد. فهو متأهّل منذ خمسةَ عشرَ عامًا، ولكنّه لم يُرزق بمولود؛ وعندما تزوّج أخوه الأصغر وجاءه صبي، دبّت الحميةُ في روح أيمن وتعطّش للذرية. ناس لا يدرون ماذا يفعلون بأولادٍ متدفّقين، ويسعَوْن إلى الموانع والروابط ؛ وناس يتحرّقون إلى طلعة ولدٍ زاعق، ويحارون كيف يحقّقون مبتغاهم العزيز.

ولكنّ القمر البهيّ صار قُرْصَ عسلٍ فوق رؤوسنا في «صَوْفَرْ،» ونحن نسمُرُ مبتهجين بالليل الطريّ، والرفقةِ الطيّبة، والمأكل اللذيذ، وبضيافة «حسّان» السمحة ولطافة «سمر» السخيّة؛ وقبل ذلك كلّه نسعَدُ بالعود، عود الصديق عبدالحفيظ، عمرُه نِصْفُ قرنٍ، أي العود؛ أما العوّاد فخبير زراعي، يذهب في آذار إلى أعالي بلاد جبيل، يتفحّص التفاح والكرز، ويُصغي لتفجّر الماء في «أفقا»؛ ولكنّه، فضلاً عن ذلك، خبير بالألحان والموشّحات والأدوار، حيث «العِصْمة لا تكون إلاّ لنبي.» وعبد الحفيظ يحتضن عوده ويحنو على أوتاره، ويشدو: «عندما يأتي المسا ونجومُ الليل تُنثر،» «جفنُه علّم الغزل»... مختتمًا السهرةَ، عند الواحدة والنصف ما بعد منتصف الليل، برائعة عبد الوهاب «من غير ليه» الوداعية: «خايف طيور الحب تهجر عشّها، عشّها، وترحل بعيد!»

وتلفّتُّ أبحث عنكِ، يا سليمى. أعرف أنّ المأكل كان سيسرُّكِ؛ وأعرف أنّ العزف والغناء كانا سيَدخلان قلبَكِ، يبثّانه الفرحَ والمتعة؛ وأعرف أنّ وجهك الصبُوح كان سيتلألأ انطلاقًا وابتهاجًا، وستهتزّ الرِّجْلُ منك جَذْلى. كانت تَفْصلني عنك بعضُ الأودية: فأنا في «صوفر»؛ وأنتِ، مع الوالدة، تُمضيان، نهايةَ الأسبوع، في «بكفيا.» غير أنّ هذه الأودية ما كان لها أن تَحْجب، عن ناظري وخافقي، بسمتكِ الساحرة؛ فهي تختزل ما في روحك من صفاءٍ وبراءة، ومن استعدادٍ فطريٍّ للعون والتضحية. ابتسامتكِ عنوانٌ لك، رسالةُ ودٍّ، نداء يَرْشح باللُّطف والظَّرْف.

**١٠ ـ «ورانا إيه؟»** (الثلاثاء ٣ آب ٢٠٠٤)

البارحةَ، مساءً، طفح الوادي، الفاصلُ بيننا وبين السلسلة الغربية، بضباب أبيضَ كثيف. لكأنّه مساء خريفيّ نموذجيّ. غير أنّنا ما زلنا في فواتح آب، هي سانحة مزاجيّة للطبيعة، في نظرك المتأدّب؛ ولكنّها، في نظر العارفين، سانحة لا بدّ منها لنُضْج التين والعنب. وهل نسينا المَثَل الشائع: «آب طبّاخ العنب والتين»؟ واختفت عن ناظري أضواءُ «مجدلبعنا» تمامًا. ما همَّ، ليس لي فيها نديم ولا حبيب. على أنّها باتت تعني لي شيئًا: فإنّ بعض فتيان وفتيات «شانَيْه،» الذين نالوا شهادةَ البريفه، هذا العام، سيميّمون شطرَ مجدلبعنا لولوج ثانويّتها الرسمية، بعد أن فرغوا من التعليم المتوسّط في مدرسة البلدة، ذاتَ الاسم الذي يبتدئ ولا ينتهي، لذا اختصرناه، ذات كتابةٍ سالفة، على الطريقة الفرنسية: مَشْمر (مدرسة شانَيْه المتوسطة المختلطة الرسمية). وأخبرني «نضال» ـ ذو العينين المتسائلتين على خَفَرٍ وتهذيب، وقد جلب ليَ البارحة إلى البيت بعضَ الأغراض التي ابتعتها من عند فارس؛ فكيف لي، في هذا العمر، أن أحمل بطيخة خضراء كبرى مخطّطة كجلد الحمار الوحشي، ولو أنّ امرأ القيس ذبحها لمعشوقاته، لتغنّى بحلاوتها وعرّج على ذكر وزنها الثقيل ـ أخبرني نضال، ووالدُه طرّاش، أنّه ذاهب إلى مجدلبعنا لمواصلة

الدراسة؛ وأنّه ينتوي، بعد الثانوية، التخرّج في المدرسة الحربية. فقلت في نفسي: عساه يدخل في بلد الطوائف والكوتات.

وقد تقولين، يا سليمى، بعد مطالعة ما تقدّم، عبارتَكِ الإنكليزية التي تردّدينها: «so what?» أو قد تتغنّين بعبارةٍ من أغنية داليدا الفاتنة، التي تأتي فيها على ذكر سوهاج وكوبري عبّاس: ورانا إيه؟ ورانا إيه؟ أنتِ حبّي، والناس أحبابي، والطبيعة مَهْوايَ وراوية عن عِشْقي لها، بروح وامقة لا ينطفئ لها غليل. كنتُ البارحةَ شاخصًا، طوال هزيعٍ من الليل، إلى الضباب المتكاثف، متدثّرًا بالثياب، وقد شفّني الشوق وبرّح بي الحنين إليكِ. وإذا كانت مجدلبعنا متوارية، لكأنّها غير موجودة في دنيانا؛ فأنتِ في خاطري تملئين عينيّ وتتخطّرين في وجْداني، وقد ملكتِ مَحْياياَ وقيادي. بلى، أنا عاشق منفيّ؛ ولكنّي أَنْعم بخيالٍ خصبٍ أستحضر، بواسطته، ثغرَكِ الضاحك، ووجهَكِ المضيء، وثناياك العذبة. وأطللتُ من الشرفة، بعد أن خططتُ هذا الكلام، فطالعتُ في الشارع امرأة تحمل مظلّة مزركشة تغلب عليها الزُّرقة، مع أنّ الغيم يخيّم على الجو. فقلتُ متسائلاً: أبها من حاجةٍ لمظلّة صغيرة، وهناك في كبد السماء مظلّة غيمٍ عظيمة الحجم، فاترة اللحظ؟

## ١١ ـ صورة (السبت ٧ آب)

ما لي أُبصبص؛ وهل من رجلٍ لا يفعل ذلك، إنْ سنحتْ له الفرصة؟ فقد زوّدتني سُليمى، قبل صعوديَ إلى الجبل، صورةً لها، كبيرة الحجم نسبيًا، وفيها تبتسم ابتسامة مقتَضَبة، تشفّ عن حلاوة واعتدادْ؛ وتبدو أسنانها البيضاء اللؤلؤية؛ وشامة على الجانب الأيسر من ذقنها، دعك من أخرى أكبر حجمًا في أعلى جبينها؛ وفي الأُذُنين قُرْطان مختلفان، على مألوف عادتها، أحدُهما، في الأذن اليُمنى، حلقة دائرية، وفي اليُسْرى فيروزةٌ زرقاء سماوية، تلتصقْ بشَحْمَتها. وشعرها الأسود، الذي تهزّ رأسها لتسويته، وتتخلّله أصابعها، يتوّج هامتها؛ على أنّ شُعَيْرات فضيّة قليلة بدأت تَخِطُهُ. ترتدي جاكتة زرقاء، مزركشة بخطوطٍ عَرْضية طحينية اللون، وهي من نوع قماش الجينز: جاكتة زرقاء وراءها خلفية خضراء. وهناك وشاح نبيذي يلتفّ حول رَقَبتها، ويهبُطُ معقودًا على صدرها؛ من غير أن يحجب أعلاه عند الرقبة، حيث البشرة مدعوكة بالطيب مدلّكة بالورد، تزيّنها قِلادة ذهبية صفراء لأسدٍ ذي لَبَدٍ ذهبيّ أبيض، وعين ياقوتية حمراء.. وتضحك سليمى وتقول مصحِّحة: عين محمرّة! وهي قِلادة تتدلّى من عِقْدٍ أصفر، يلتفّ حول الرَّقبة. لستُ آثمًا إنْ هويتُ هذه البقعة، وتلهّفتُ إليها شمّاً وضمّاً. ما لي تحدّثتُ عن أشياءَ، وتجاوزتُ العينين، وهما أحد مكامن الجَمال عند سليمى. واحتان من العسل، تَرْشحان حنانًا، وتفيضان حبًا دافئًا ووعدًا حارّاً باللُّقيا. لهفي إليهما. لهذا أجدني مدفوعًا، وقد وضعتُ صورتها، التي أهدتني إيّاها، في آخر الملفّ الذي يشتمل على هذه اليوميات، إلى أن أُبصبص لأستعيدها في عينيّ المتلهفتين. والكلمة «أبصبص» عامية، ولكنّها غدت شائعة معبّرة. وربّ مفردةٍ عامية تنوب، أحيانًا، عن قِنْطار كلامٍ فصيح.

الجوّ من حولي يغشاه غيمٌ رقيق، يحجب الشمس من حين إلى حين، ويَنْشر برودة خفيفة يَلَذُّ للمرء الانتعاشُ بها. فنحن في آب اللهّاب في بيروت، ولكنّي أعرف، يا سليمى، أنّكِ تركت العاصمة، كما تفعلين خلال الويك أند من كلّ أسبوعٍ طوال هذا الشهر، وتذهبين إلى أحد المصايف في المتن الشماليّ، في حين أنا حالٌّ في أحد مصايف المتن الجنوبي. أحمّل هذا الغيم تحياتي وقبلاتي، لعلّه في زحْفه وتنقّله، عَبْرَ الأودية، يحطّ عندكم، فِعْلَ الحمام الزاجل في سالفات الأيام. عساه فاعلاً، وعساني مغتبطًا بهذا محبورًا.

## ١٢ ـ كشاعرٍ باحثٍ عن مطلعٍ (السبت ١٤ آب)

نفسي مترعةٌ بجَيَشان عواطفها والأفكار. من أين أدخل يوميّتي هذه؟ في الصباح الباكر، وأنا أتدثّر بروب دو شمبر شتويّ، صُنْع الشقيقة، شاهدتُ ورقَ العريش وهو يهتزّ، مع الهواء البارد المنعش، كفراخٍ مذعورة. الزنجية المليحة تسقي بمِرَشّتها مساكب النعنع والبقدونس. الزَّنْج يلاحقونني. ومع أنّني كنتُ مخطِّطًا، اليومَ، للعمل في إنهاء الطبعة الثالثة المَزيْدة والمجدَّدة من كتابيَ القديم **ثورة الزَّنْج، وقائدها عليّ بن محمّد**؛ إلاّ أنّ داء الكتابة الأدبية لا فكاك منه، وهكذا نحّيتُ الكتاب وانغمست في هذه اليومية. ومع هذا فها أنا أتحدّث عن الصبيّة الزنجيّة، والغالبُ أنّها سودانية. كم هم جميلون ودَمِثون ولُطفاء إخواننا وأخواتنا في السودان العريق. وأخبرني الصديق «كامل،» الذي يعيش مع زوجته «براعم» التي تعمل هناك، وهو الآن بات يمشي الهوينا، إثر ضربة شمسٍ حصدها تحت سماء السودان؛ أخبرني كامل أنّه لم يبقَ في السودان إلاّ الأطلال، مع أنّ هذا البلد العربي هو من الغنى الطبيعي العجيب، بحيث يقولون إنّ عمود الكهرباء الخشبي هناك، يفرّخ، بفعل الرطوبة، غصنًا أخضر! لقد أتى على السودان العسكرُ، فِعْلَ الجراد في حقل مزهر. وذكّرني هذا بمسرحية **الخال فانيا** للكاتب الروسي الرائع، أنطون تشيخوف ـ وهي عمل ترجمتُه، غِبَّ تخرّجي في الجامعة، وبقي مطويًا بين أوراقي ـ فإنّ الطبيب «أستروف» يتقدّم، في الفصل الرابع والأخير من المسرحية، من خارطة لأفريقيا معلّقة على الحائط، ويقول بشكل رمزيّ لمّاح: «ينبغي أن يكون الطقس حارّاً، خلال هذا الوقت، في أفريقيا هذه، على نحوٍ يقطع الأنفاس!» إنّه أيضًا نصيبنا التَّعِس، مع عسكرنا المشرقي، الذي أكل لحم أوطاننا ورمانا عظمًا في العراء، ولا مَنْ يحمينا ولا مَنْ يسأل عن ويلاتنا.

جارتنا، ذات الشعر الأشقر، وقميص النوم الوردي، تنشر الملوخية، عند حافة شرفتها، وتقلّبها بين أصابعها، بغرض التجفيف. لعلّها تهيّئ المؤونة. وحسنًا تفعل، فهل هناك مذاق أطيب من مذاقها ـ أقصد الملوخية ـ وخصوصًا عندما يُضاف إليها رذاذٌ من حرٍّ ناعم أحمر؟ لقد التهمتُها البارحة عند الغداء، وما زالت في حلقي وشَهيّتي من طيبتها طُيُوف. دَرْفة النافذة، قُبالتنا، ذات الخشب المطليّ بالدهان الأحمر، يفتحها الهواء، ثم لا

يلبث بعد قليلٍ أن يُغْلقها، فتبدو كنَفْسٍ حَيْرى. أما أنا فأشبهُ بمَتَاعٍ معلَّقٍ فوق مِشْجبٍ، يكاد يسقط أرضًا. أفتقد سليمى، فقد باتت جُزْءًا صميمًا من معاشي وتفكيري. شوقي إليها كشوق الأرض العطشى إلى الريّ، كلهفة الزهرة إلى أن تكون منداةً، كتطلّع المقرور إلى الدفء والحنان، كشاعرٍ باحثٍ عن مطلعٍ يجيء ولا يجيء. هذه امرأة تحبِّب إليك الحياة، وتَحْملك على أن تَلجَ خُرُومها مغتبطًا نشوانَ: يا امرأةً جمّلتِ مجرى حياتي، وسكبتِ فيه الكثير من حَدْبكِ وحلاوة ضحكتكِ ونضارة لَفَتاتكِ، بتُّ أسير حبّكِ الجميل. والروعة فيه أنّه حُبّ متبادَل على خطّين؛ ولو أنّه على خطٍّ، ومن طرفٍ، لفقد وهجه واضمحلّ عند أوّل عَطَبٍ.

**١٣ ـ الفَرَجُ آتٍ** (الاثنين ٢٣ آب)

أعود إليكِ، يا يوميّاتي، صَدْيانَ ملهوفًا. لم أهجرك، وإنّما الظروف، ظروفُ الانهماك في طبعة ثانية منقّحة ومَزيْدة لكتابي **العهد السرّيّ للدعوة العباسية**، وطبعة ثالثة مَزيدة ومجدَّدة لكتابيَ القديم، الذي عرفني به الكثيرون، **ثورة الزِّنْج. وقائدها عليّ بن محمد**؛ هي التي صرفتني عَنْوةً، عن الوصال مع سليمى، عَبْرَ هذه اليوميات، التي غدت وتيرتها أسبوعيّات! ولكنّي، اليومَ، وجدتُني عاصيًا، متمرّدًا على كُتُب التراث والتاريخ؛ فساكنها، أنا، منفيّ مرتيْن: الأولى، لاستغراقي في الماضي وحيثيّاته وإشكالاته؛ والثانية، لأنّي بعيد عن سليمى، أقتاتُ الحسرة وأُكابدُ الشوق. ثم أُعزّي النفس أنّ زمن المنفى لم يعد طويلاً؛ فها أنّ آب يكاد ينقضي، وأيلول على الأبواب؛ وما هي إلاّ غمضةُ عينٍ، ونزولٌ إلى بيروت وطلوع، حتى يحلّ تشرينُ بمباهجه، ويلتئم الشملُ مجدّدًا، ويقرع جرسُ الحبور والأفراح. فنعاود الجلوسَ في الأمكنة الأثيرة، ونغشى صالات السينما، حيث نهتزّ مع أبطال طَرْوادة المحاصرة الصامدة، ومع حكاية الحصان الشهير الذي جلب الهولَ لها والاستباحةَ والتقتيلَ والنهب. وهي بروقة قديمة لفصلٍ تتكرّر مشاهدُه، في زمننا الراهن، مع الحروب الأهلية، ومع الخَتَل الإمبريالي، الأميركي بامتياز. والملك آرثر ما برح ينتظرنا، لنشاهد مآثره الحربية وغرامه العنيف.

تذكرين، يا سليمى، الفيلمَ المنعقد حول التعذيب في الأرجنتين، في عهد الجنرالات؛ وقد شاهدناه في الأول من حزيران المنصرم. وخرجنا من الصالة نتلوّى من الإعجاب بالعمل الفني وبالمضمون الشائق؛ وإنْ كان ليس جديدًا علينا، فتاريخُنا العربي المعاصر صفحةٌ تَقْطر دمًا ويعلو منها النشيج والصراخ. خرج الاستعمارُ، وحظينا بالانقلابات والسجون وفنون التعذيب والاضطهاد، حتى صار لنا أدبٌ شبهُ جديد هو أدب السجون، وروايةُ **شرق المتوسط** لعبدالرحمن منيف قَطْرةٌ في جدولٍ دفّاق. نوشك، من فرط الغيظ والذهول والمهانة، نحنّ إلى أيام الاستعمار؛ لأنّ ظلم العسكر من العشيرة والأهل أشدّ مضاضةً من جلافة السنغاليين والأوستراليين. ويستحقّ الكواكبي، هذا الحلبي الأشمّ، أن نُطلق اسمَه على شارعٍ في كلّ مدينة عربية، لأنّه تنبّه للاستبداد ومفاعيله على جميع الصُّعُد، منذ عام ١٩٠٠. وهو العام الذي بارحتْ عائلتي، عُلّبي، دمشقَ لتستوطن بيروتَ. وفي هذه المدينة، المتفرّدة في طول الوطن العربي وعرضه، وُلدتُ في الأول من حزيران ١٩٣٦؛ وصِرْتُ لبنانيًا عربيًا أُمميًا. والسعي الدؤوب، اليومَ، هو لتحويل هذه المدينة المتفرّدة، بيروت، إلى ما هي عليها سائرُ المُدُن العربية: سجون وأصفادٌ وعَسَس، وديموقراطيةٌ تدوسها الأحذيةُ الثقيلة (البوطات). في أوروبا يوجد مواطنون، وفي الوطن العربي يوجد رعايا. ورحم اللّه خالد محمّد خالد الذي أصدر، في مارس ١٩٥١، كتابه الوجْداني الاحتجاجي الغاضب: **مواطنون لا رعايا**.

**١٤ ـ وداعًا أيُّها المنفى** (الأربعاء ١ أيلول ٢٠٠٤)

نحّيتُ، اليومَ، أوراق البحث جانبًا، فإنّ أيام المنفى طالت واستطالت، ولم يعد الكلام مع سليمى، بواسطة الهاتف، لدى استهلاكية مالك، بين حين وحين، يَشْفي الغليل ويروي ظمأ المشتاق. أنا لا أقتني هاتفًا حيث أصطاف، وذلك عمدًا وعن سابق تصوّر. يكفيني رنين الهاتف في بيروت. أصطاف لأغيّر نمط عيشي، ولأكون بمَنْجاةٍ من انشغال البال أحيانًا بتوافه الحياة. ههنا أنا سيِّد وقتي: أقرأ، أكتب، أتنزّه، أتأمّل؛ أُحصي الصنوبرات المتفرّقة عند تلّةٍ في طرف الوادي، وأعيد الكرّة، خوفًا عليها من النقصان. أستقبل، عصرًا، بعض الزائرين من الأهل والخِلاّن؛ ونتسامر في الليالي المنعشة الرِّطاب. وسمعتُ في الراديو، الذي يظلّ شغّالاً طوال الليل، قرب أُذُنيّ، سواءٌ أكنت مستيقظًا أم غافيًا؛ سمعتُ مقابلة مع صحافيٍّ مرموق، وفيها يذكر أنّه يهوى المبيت في الصحراء، حيث السكينة المطلقة، وحيث لا رنين لهاتفٍ. وكان بودّي أن أسأله، ونحن نحيا ثورة الاتصالات، إذا ما كان تاركًا هاتفَهُ النقّال، في شقّته، عمدًا وعن سابق تصميم.

نحن، يا سليمى، في الفاتح من أيلول، وما هي إلاّ ثلاثة أسابيع حتى نعاود معانقة بيروت وأحبابنا هناك. أتلفّع بالشوق، وأتيمّم بالحنين. ولكنّ الفَرَج آتٍ. قلبيَ ينابيع تائهة، أشجار متسائلة، وحقولُ قمح تحمل حنطة واعدة. قلبيَ أجراس تفتقد الرنين، أعياد تبحث عن لُهاثٍ ومواعيد، وأنهار أضاعت تختها ومجراها. قلبيَ نيزك، حِبْرُ شَهَواتٍ، وهديل. أنا قادم إليكِ، يا عزيزتي، لأنهل من رُضابك عسلاً شهيًا، محلولاً يُطيل العمر ويؤرّج الأيام ويكسبها طعمًا ولونًا وصوتًا. أنا قادم لأستحمّ بغُنْجكِ، وألتقط عصافير قهقهاتِكِ، وأجلس مغتبطًا بحضوركِ السنيّ. وداعًا أيُّها الجبل الملهم، وداعًا أيَّتُها البلدة الوادعة، المطلّة على سلاسل الجبال، الحاضنة للقرى الخضراء المتناثرة. وداعًا لطاولة السنديان المربّعة، الواقعة في زاوية الصالون، والتي جلستُ إليها، طوال ثلاثةِ أشهرٍ، أُحبّر أبحاثيَ وهمومي، أشواقيَ ودراساتي. وداعًا للمنفى السعيد!

**بحمدون/شانَيْه ـ صيف ٢٠٠٤**